ترشيد الرسول ﷺ مسيرة الصحابة
في فهم القرآن والعمل به

إعداد

د. زياد خليل محمد الدّغامين

أستاذ التفسير المشارك بقسم القرآن والسنة

الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا

تمهيد

تكمن أهمية دراسة البيان النبوي لمعاني كتاب الله وتفسيره في تأصيل منهج النظر في القرآن، وتقعيد الأسس الضرورية التي يجب أن تكون حاضرة في ذهن المفسر وهو يبيّن معاني كتاب الله تعالى. وقد تناول باحثون عديدون هذا الموضوع فرصدوا الأحاديث الواردة في تفسير الرسول للقرآن، أو تعرضوا لبيان طريقته في التفسير بوجه عام(١) ، لكن دراسة واحدة -في حدود اطّلاعي- لم تتوجّه الى ما ستتوجّه إليه هذه الدراسة من إبراز معالم منهج تفسير القرآن والتعامل معه من خلال ترشيد الرسول صلى الله عليه وسلم ومراقبته الصحابة في فهمهم للقرآن والتزامهم به عقيدة وعملا. وهي دراسة ذات أهمية كبيرة يحاول هذا البحث أن يعالجها، أو يوجّه الأنظار إليها بعبارة أدقّ. ويتوجّه نحو استخلاص الأسس والضوابط المهمّة في التعامل مع القرآن الكريم فهمًا وتفسيراً، ويعرض ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من شأن في عنايتهم بالقرآن ؛ لتكون هذه الأسس والضوابط المعيار الأمثل في التفسير، أو في التعامل مع التراث التفسيري الذي خلّفه علماؤنا رحمهم الله.

والطريق الذي سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم في التفسير تبيانا لكتاب الله تعالى يحقّق مهمّته التي تجلّت في قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون﴾(النحل: ٤٤). ومن ثمّ فهو منهج يقصد الى تجسيد هداية الله تعالى في أرض الواقع، ويعبّر في مفهومه ومنطوقه عن بعث العقل للتفكير في استمرارية استصحاب الوحي لاحتواء متغيرات الواقع، والهيمنة على قضاياه ومستجدّاته، ولإثبات كونه منهج هداية يفي بحاجات البشر على ممرّ العصور.

---

(١) انظر على سبيل المثال: التفسير والمفسرون للذهبي، مقدمة مناهج في التفسير مصطفى الجويني. مقدمة في تفسير الرسول للعفيفي، منهج النبي والصحابة في التفسير لحكمت بشير، من صحيح التفسير النبوي لخالد عبدالرحمن، هذا فضلاً عن كتب قديمة جمعت المروي عن رسول الله في التفسير ، فقد كتب المحاملي والواحدي وابن الوزير اليماني وبهاء الدين العلوي الحسيني مؤلفات في ذللك.

وعملية الترشيد هذه تتمثل - الى حدّ كبير - في بيان الأحاديث الصحيحة التي تبيّن وقوع بعض الصحابة في فهم بعض آيات القرآن على غير وجهها، أو تصويب الاجتهادات الفردية لبعضهم. وغالبا ما كانت تتركز عملية الترشيد على الجوانب المتعلقة بفهم القرآن، أوالجوانب المحقّقة للالتزام. وسنقتصر من الأحاديث على ما يحقّق المقصود، ومن الروايات على ما ينسجم مع الموضوع. وليس من عملنا الاتجاه الى شرح هذه الأحاديث، واستنباط الحكم والفوائد منها. وربما نقدّم رواية في السنن على أخرى في الصحيحين لتحقيقها بغية هذه الدراسة.

وجدوى هذه الدراسة تأتي من حيث أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا ليصدروا في سلوكهم وعملهم إلا عن فهم لآي القرآن الكريم، وإدراك لحدود ما أنزل الله فيه، باستثناء اجتهادات لبعضهم أحيانا. فهناك -إذن - نصوص قرآنية تختفي خلف ذلك السلوك والعمل وترتكز عليه، وتقوم على أساسه(١) . وهذه الأفهام وذلك الإدراك وتلك الاجتهادات لم يكن متحقّقا فيها هدايات الوحي أحيانا ؛ لذلك نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلك المرشد الموجّه للفهم ، المقوّم للإدراك، المصوّب للاجتهادات دون أن يشير الى الآية الحاكمة على ذلك الفهم في أحيان كثيرة؛ لأنها حاضرة في قلوبهم ، خالدة في نفوسهم، وكأنه صلى الله عليه وسلم يلفت الأذهان الى ضرورة الإدراك الواعي لمقاصد هذا الكتاب وحقائقه.

وتجدر الإشارة الى أن ما أجاب به القرآن على تساؤلات الصحابة لا يعدّ ولا يدخل في عملية الترشيد والمراقبة النبوية لفهم الصحابة، ولا كذلك أسباب النزول التي تشتمل على تصحيح المفاهيم ؛ بسبب أن هذا كله يندرج في طبيعة

---

(١) ذهب بعض الباحثين إلى أن كل كلمة قرآنية لها رصيد يفسّرها من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تدور معها في كل مواضعها، وقصد بذلك: البيان العملي والتفسير التطبيقي الذي تفهمه كل العقول. انظر: محمد العفيفي، مقدمة في تفسير الرسول للقرآن الكريم، نشر دار السلاسل(١٣٩٩)، ص ١٥، والأولى في تقديري، بل والأوفق لما هو واقع في البيان النبوي هو أن كل فعلل أو قول للرسول الله صلى الله عليه وسلم وراء نصوص من القرآن يستند إليها وينطلق منها، والرسول صلى الله عليه وسلم متّبع للقرآن مقتد بهديه، ولا يعني هذا بالضرورة أن يكون لكل كلمة قرآنية جملة من الأحاديث النبوية تفسرّها عملياً. .

المهمّة النبوية المتمثلة في البيان والتبليغ.

وينبغي التنبيه بادئ بدء إلى أن ترشيد الرسول مسيرة الصحابة ينبني على أصل أصيل، وهو أن ما أمر به رسول الله أو حثّ عليه أو نهى عنه . . . إنما هو وحي يفسّر به كتاب الوحي، ومما يشهد لذلك أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الدّباء والحنتم والمزفّت والنقير ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(الحشر: ٧)⁽¹⁾.

وهذا ما يؤكد شأن البيان النبوي الذي استوى أساسا راسخا في أذهان الصحابة في فهم القرآن والعمل به، فهذا ابن مسعود: "يلعن الواشمات والمستوشمات. . . فتسمع به امرأة من بني أسد، يقال لها أمّ يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته، فقالت: ما حديث بلغني عنك: أنك قلت كذا وكذا وذكّرته؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله، وهو في كتاب الله؟ فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف، فما وجدته، قال: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال: الله عزّ وجلّ: "وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا " . . .⁽²⁾ . "والمقصود أنه إذا كان العباد مأمورين بالانتهاء عما نهاهم عنه الرسول، وقد نهاهم عن الأشياء المذكورة في هذا الحديث وغيره، فكان جميع منهيّاته صلى الله عليه وسلم منهيا عنها في القرآن"⁽³⁾ . وهذا يوضّح ما كان لدى الصحابة من فهم واع لكتاب الله تعالى، فالنهي عن الوشم بيان لما يقتضيه الإيمان الصحيح، وهو ترشيد لمسيرة العمل بتوجيه النظر الى سنة رسول الله ومكانتها في بيان معاني القرآن الكريم. وهذا يتطلب الاعتماد على السنّة النبوية في بيان مفهوم الآيات على القدر الذي يحقّق مفهوم الالتزام والعمل.

---

(١) قال الألباني: صحيح دون تلاوة الآية، وكأنها مدرجة. انظر: صحيح سنن النسائي(١٩٨٨) مكتب التربية العربي، الرياض(٣/ ١١٤٢) ج٥٢١٤ ، ٥٢١٥ . .

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، متن فتح الباري، تصحيح ابن باز، نشر دار الإفتاء، السعودية، انظر: كتاب التفسير(٨/ ٦٣) ج٤٨٨٦، وسنوثق أحاديث البخاري من كتاب فتح الباري لابن حجر العسقلاني في البحث كله.

(٣) أبو الطيّب محمد شمس الدين الحقّ العظيم ابادي، عون المعبود شرح سنن ابي داود (١٩٧٩) دار الفكر بيروت ١١/ ٢٢٦.

المبحث الأول

العناية بالقرآن في عهد النبوّة

كانت طريقة تلقّي القرآن وحفظه، وقراءته وفهمه، وتعلّمه وتعليمه من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ ذروة الكمال - في حدود الطاقة البشرية - ووصل الى أقصى جهد يمكن أن يبذله الإنسان في التفاعل مع آيات الوحي القرآنية، فظهر بهذا التفاعل كيف انساب الوحي وتجذّر في الكيان الإنساني كله، عقيدة وفكرا، وفعلا وسلوكا، وأحاسيس ووجدانا، وظاهرا وباطنا. لقد تكفّلت كتب السنّة ببيان جانب العناية بالقرآن في عهد النبوّة. وبحسبنا هنا أن نشير الى ما كان عليه رسول الله من تحلّ كامل بأخلاق القرآن، وتجسيد حقيقي لهدايته الشاملة على أرض الواقع لتقريب مفهوم الالتزام به، وبناء الحياة الإنسانية في ضوء هدايته الشاملة، وتحقيق العبودية لله بكل أبعادها في الميادين كلها. وبمعنى آخر؛ لقد تنزلت آيات القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فامتثل لهديه؛ فكان المرآة العاكسة لأنواره الساطعة، الكاشفة سبيل الحقّ ، المبدّدة ظلمات الجاهلية. وكان بذلك أعظم إنسان فهم القرآن والتزم به بدليل قول أم المؤمنين رضي الله عنها: " كان خلقه القرآن" (١) . ولقد بذل أفراد الصحابة جهدهم للحاق به . . . ، هذا على مستوى الأفراد. وأما على مستوى مجموع الأمّة فقد ارتقت بالقرآن حتى ناطحت السحاب، وبلغت عنان السماء.

وتشهد كتب السنّة أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم بالقرآن حتى تتفطّر قدماه. وكان يقوم بآية واحدة يتدبّرها الليل كلّه، فقد قام حتى أصبح بآية، وهي قوله تعالى: ﴿إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم﴾(المائدة:١١٨) (٢) . ليؤسّس بذلك منهج النظر والتأمّل في القرآن،

---

(١) مسلم بن الحجاج النيسابوري ؛ الجامع الصحيح، تحقيق محمد عبدالباقي (بلا تاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت ، كتاب صلاة المسافرين (١/ ٥١٣ج ح١٣٩).

(٢) صححه الحاكم ، ووافقه الذهبي، انظر:أبو عبدالله الحاكم النيسابوري: المستدرك

وهو نظر هادف الى ملئ قلب العبد بحقائق الإيمان ، لتجعل منه كائنا فاعلا في هذا الوجود، ومؤثرا فيه، لا أن يعيش على هامش الحياة، لا يعبأ به أحد، ولا يعبأ بأحد.

وتبيّن الروايات أن هذا التفاعل المثمر الناتج عن تلاوة الرسول للقرآن واستماعه له قد انعكس على كيانه كله، فوصل الى حدّ البكاء المعبّر عن تفطّر القلب بخشية الله سبحانه، لقد طلب الى ابن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه القرآن، فقرأ عليه من سورة النساء حتى انتهى الى قوله تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾، قال: حسبك، قال ابن مسعود: فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان(١) . فالطريقة المثلى الإيجابية في تلقّي القرآن الكريم تقتضي انجذاب السمع والقلب والروح إليه، وإقبال النفس نحوه بوعي وخشوع، وهي طريقة تشكل لبنة رئيسة في منهج يهدف الى تحقيق الفهم والإدراك في التعامل مع القرآن.

والتفاعل مع النصّ القرآني أمر وجّه النبيّ إليه أصحابه، فقد خرج عليهم -ذات يوم - فقرأ سورة الرحمن من أوّلها الى آخرها فسكتوا ، فقال: لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ ، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: " فبأي آلاء ربكما تكذّبان؟ قالوا: لا بشئ من نعمك ربّنا نكذّب، فلك الحمد(٢) . فقولهم يعبّر عمّا انطوت عليه نفوسهم فنطقت به أفواههم من استجابة وتأثر بالغ بآيات الله تعالى، ويبيّن قوّة التصديق وحسن الاعتقاد. وهذا مما يجعل قلب العبد ذاكرا لله تعالى، متّصلا بهدي كتابه الكريم.

الحياة به والعمل بما فيه :

كانت العناية بالقرآن لا تقتصر على معرفة ما فيه من حقائق وأحكام

على الصحيحين (بلا تاريخ)، دار الكتاب اللعربي، بيروت، كتاب الصلاة (١/ ٢٤١) وقال الألباني حديث حسن، انظر: محمد ناصر الدين الأللباني: صحيح سنن النسائي(١٩٨٨) مكتب التربية اللعربي، الرياض (١/ ٢١٨ح٩٦٦).

(١) رواه البخاري ، كتاب فضائلل اللقرآن (٩/ ٩٤)، ح٥٠٥٠)

(٢) حديث حسن: انظر : محمد ناصر الدين الألباني؛ صحيح سنن الترمذي(١٩٨٨)، مكتب التربية العري، الرياض، (٣/ ١٢ ، ح٢٦٢٤).

وهدايات فحسب، بل كذلك في الحياة به، والعمل بما جاء فيه من أمر ونهي . . . ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يضبط حركة المجتمع الإسلامي على وفق هدايته، وينكر على كل من يخرج عن هديه أشدّ الإنكار، فقد جاءت بريرة - خادمة عائشة أم المؤمنين تستعين بها في كتابتها، فقالت لها عائشة: إرجعي الى أهلك، فإن أحبّوا أن أقضي عنك كتابتك، ويكون ولاؤك لي، فعلت ، فذكرت ذلك بريرة لأهلها، فأبوا، وقالوا: إن شاءت أن تحتسب عليك، فلتفعل ويكون ولاؤك لنا، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله لها: ابتاعي وأعتقي، فإنما الولاء لمن أعتق، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال أناس يشترطون شروطا ليست في كتاب الله؟ من اشترط شرطا ليس في كتاب الله فليس له، وإن اشترط مائة مرّة. شرط الله أحقّ وأوثق^(١) . وهذا مما يقرر أن القرآن هو الميزان القويم، والمعيار الحقّ الذي يقاس به كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل، وأنه الضابط الحاكم على السلوك. ومعنى قوله: "ليس في كتاب الله"، أي: ليس مشروعا في كتاب الله تأصيلا ولا تفصيلا^(٢) فالتوجّه الى كتاب الله: ما أحلّه وما حرّمه ، والالتزام به كان هو الوضع القائم في حياة النبوّة كلها في مرحلتيها المكيّة والمدنيّة.

ومما يؤكد تلك العناية التي تجعل للقرآن هيمنة على سلوك وتصرفات الأفراد، أن بلالا رضي الله عنه جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برنيّ، فقال له النبي: من أين هذا؟ قال بلال: كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي عند ذلك: أوّه، أوّه عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر، ثم

---

(١) رواه مسلم ، كتاب العتق (٢/ ١١٤١ ، ح٦).

(٢) ومعنى هذا : أن من الأحكام ما يؤخذ تفصيله من كتاب الله كالوضوء، ومنها ما يؤخذ تأصيله دون تفصيله كالصلاة، ومنها: ما أصلّ أصله، كدلالة الكتاب على أصلية السنة والإجماع، وكذلك القياس الصحيح، فكل ما يقتبس من هذه الأصول تفصيلاً فهو مأخوذ من كتاب الله تأصيلاً. انظر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، نشر دار الإفتاء السعودية(٥/ ٢٢٢).

اشتر به"(١). وعلى هذا الأساس ينبغي تقديم القرآن للناس، وتفسيره لهم بوصفه المرجعية الأولى التي تصدر عنها أفعال العباد. والشاهد في مثل هذه الروايات تقرير شأن القرآن بوصفه المرجعية الأولى التي يجب أن تحكم تصرفات الأفراد والجماعات وتضبط سلوكهم ، وتقوّم حركتهم الفكرية كذلك.

وتوجّهت عناية الرسول صلى الله عليه وسلم الى تثبيت معاني القرآن وأحكامه في نفوس الصحابة تثبيتا يدفع الى الاستقامة في العمل والفهم ، يشهد لذلك أنه لما نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون﴾ (الزمر: ٣١) قال الزبير: يا رسول الله ، أتكرر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم ، فقال : إن الأمر إذا لشديد"(٢). وهو تأكيد لمبدأ الحساب والعقاب بكل تفاصيله.

ومما يشهد لتأكيد هذا المبدأ - أيضا - أن رجلا جاء فقعد بين يدي رسول الله، فقال يا رسول الله: إن لي مملوكين يكذبونني ويخونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله: إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذّبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إيّاهم بقدر ذنوبهم كان كفافا، لا لك ولا عليك. وإن كان عقابك إيّاهم دون ذنوبهم، كان فضلا منك. وإن كان عقابك إيّاهم فوق ذنوبهم ، اقتصّ لهم منك الفضل. فتنحّى الرجل وجعل يهتف ويبكي. فقال له رسول الله : أما تقرأ قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾(الأنبياء :٤٧). فقال الرجل: يا رسول الله ! ما أجد لي ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم ، أشهدك أنهم كلهم أحرار"(٣).

لقد كانت العناية النبوية قائمة على التحقّق بالنصّ القرآني ، والارتقاء الى مستوى خطابه، وهادفة الى ضبط سير حركة الفرد والمجتمع في ضوء

---

(١) البخاري، كتاب الوكالة (٤/ ٤٩٠ ، ح٢٣١٢)

(٢) حسن الإسناد، انظر: الألباني، صحيح سنن الترمذي ، كتاب التفسير (٣/ ٩٩، ح٢٥٨٣)

(٣) صحيح الإسناد. انظر: الألباني، صحيح سنن الترمذي(٣/ ٧٧ ، ح٢٥٣١.

هدايته الشمولية. وكانت الألسنة والقلوب تلهج بآيات القرآن تلاوة وسؤلا، ودعاء وذكرا، يدلّ لذلك: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ البقرة وآل عمران والنساء في ركعة، لا يمرّ بآية رحمة إلاّ سأل، ولا بآية عذاب إلا استجار(١).

هذه هي الحلقة المفرغة في منهج تعامل المسلمين - اليوم- مع كتاب الله وعنايتهم به، فلم يعد للقرآن تلك الهيمنة على حركة الفرد والمجتمع، أو الأمّم والدول. ولم يعد القرآن هو الشغل الشاغل لهم جميعا، ولم يعد قبلتهم في تحصيل العلم والمعرفة، أو ضبط الفكر والعمل والسلوك. وبعبارة جامعة: لم يعد القرآن مصدرا موجّها لسير حياة المسلمين خاصّة ، أو البشر عامّة.

تكريم القرآن:

لم تكن صورة تكريم القرآن في عهد النبوّة كالصورة السطحية القائمة في أذهان الناس اليوم، القاصرة على التفنّن بزخرفته وتزيين كتابته، وتعليقه في أماكن بارزة من البيوت لجلب البركة، ودفع الشّر، أو قراءته على الأموات منهم ... ، في حين أن تكريم القرآن يتطلب اهتماما وعناية بمضمونه ومحتواه، وقد أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم الى هذا التكريم ؛ فعن السائب أن شريحا الحضرمي ذُكر عند رسول الله، فقال: ذاك رجل لا يتوسّد القرآن(٢). ومعناه: " أنه لا ينام عن القرآن ولم يتهجّد به، فيكون القرآن متوسّدا معه، بل هو يداوم قراءته ويحافظ عليها"(٣). خاصّة وأن شريحا من أفضل أصحاب رسول الله (٤).

---

(١) صحيح ، انظر: الألباني، صحيح سنن النسائي ٢١٨/١، ٩٦٥.

(٢) قال ابن حجر العسقلاني: حديث صحيح أخرجه النسائي، انظر الإصابة في تمييز الصحابة (بلا تاريخ) دار الكتاب العربي، بيروت(٢/ ١٤٥). وانظر: مسند أحمد بن حنبل، تحقيق وتخريج أحمد شاكر وتكملة حمزة الزين(١٩٩٥) دار الحديث القاهرة(١٢/ ٢٨٧)، ح١٥٦٦٤.

(٣) مجد الدين المبارك بن محمد، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الطناحي (بلا تاريخ) المكتبة الإسلامية (٥/ ١٨٣)

(٤) أبو عمر يوسف بن عبدالله ابن عبدالبر، الاستيعاب في أسماء الأصحاب ، هامش الإصابة(٢/ ١٤٣)

ومن معاني تكريمه أن لا يقرأ في ركوع أو سجود، كما ورد في حديث: ... ألا وإني نهيت أن أقرأ راكعا أو ساجدا، فأمّا الركوع فعظّموا فيه الرّب عزّ وجلّ ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم" (١). ولعلّ الحكمة في النهي راجعة الى تلك الهيئتين اللتين لا يصلح فيهما إلاّ التسبيح والدعاء.

ومن تكريمه أن لا يقول أحد: نسيته؛ لأن النسيان تعبير لا يليق بجلال وعظمة كلام الله تعالى في القرآن الذي كتب له الخلود، فليس من الأدب إطلاق هذه الألفاظ في منهج التعامل معه ؛ لأنها تنبئ عن عدم اكتراث واهتمام وعناية. والقرآن لم ينزل لينسى أو يُتجاهل ، ففي الحديث: بئسما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسّي، واستذكروا القرآن، فإنّه أشدّ تفصّيا من صدور الرجال من النّعم من عقلها(٢). ولا يعني النسيان هنا تضييع حدوده وأحكامه، ولكن زواله من الذاكرة.

عدم الاختلاف فيه :

الاختلاف في القرآن يحتمل معنيين، الأول: الاختلاف في الأداء اللفظي للكلمة أو الآية. والثاني: الاختلاف في المعنى. وفي السنّة دعوة الى الكفّ عن كل من النوعين من الاختلاف، أما الأول فإنّ الاختلاف فيه لا يتجاوز طريقة الأداء، ولا ينبغي أن يكون معضلة تشغل بال المسلمين. وأما الاختلاف في المعنى فإذا قصد به حمل القرآن على وجه واحد من التأويل مع احتماله أكثر من وجه فهو مرفوض ؛ ليس لأن اللفظ قد يحتمل أكثر من معنى، بل لأن فيه تقييدا للنصّ القرآني في معنى واحد. مع أنّه أكبر من كل المعاني التي يستنبطها من آياته البشر.

ويمثّل للأول باختلاف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم حين استمع الى قراءته سورة الفرقان في حياة رسول الله، قال عمر: فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره في

---

(١) مسلم، كتاب الصلاة (١/٣٤٨، ح٢٠٧)

(٢) البخاري ، فضائل القرآن، (٩/٧٩، ح٥٠٣٢)

الصلاة فتربّصت حتى سلّم ، فلببته بردائه فقلت: من أقراك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها ؟ قال: أقرأنيها رسول الله ، فقلت : كذبت، فإن رسول الله قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده الى رسول الله . . . فقال صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه (١). وهذا يدلّ على مبلغ اهتمام الصحابة وعنايتهم بضبط القراءة واتقانها.

حتى إن مجرد الجهر بالقراءة إن كان يؤذي الآخرين أو يؤدي الى اختلاف أو فرقة لا ينبغي أن يحدث ؛ فقد اعتكف رسول الله في المسجد، فسمعهم يجهرون بالقراءة فكشف السّتر، وقال : ألا إنّ كلكم يناجي ربّه، فلا يؤذين بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة أو قال : في الصلاة (٢).

ويمثّل للثاني بما روي عن عبد الله بن عمرو قال هجّرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج رسول الله يُعرف في وجهه الغضب، فقال: إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب(٣). وإذا كان هذا الاختلاف يرجع الى قصور النظر ، أو فقدان الحجّة والدليل، أو عدم بلوغ المتفهم له أهلية النظر فيه ، فهو - حتما - مؤدّ الى الهلاك، ومن الوجوه التي ذكرها العلماء أيضا في معنى الاختلاف المنهي عنه: "اختلاف في نفس القرآن، أو في معنى منه لا يسوغ فيه اجتهاد أو اختلاف يوقع في شك أو شبهة أو فتنة وخصومة وغير ذلك "(٤). ويصوّر مدى الخطر الناجم عن مثل هذا الاختلاف قوله : " إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب" .

إن القراءة المطلوبة مشروطة ببقائها في إطار تآلف القلوب، ووحدة

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن (٩/ ٢٣، ح٤٩٩٢).

(٢) صحيح. انظر:محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن أبي داود (١٩٨٩) مكتب التربية العربي الرياض (١/ ٢٤٧ ، ١١٨٣).

(٣) مسلم ، كتاب العلم (٤/ ٢٠٥٣ ح٢٦٦٦).

(٤) يحيى بن شرف النووي ، شرح صحيح مسلم (بلا تاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٢/ ٢١٨-٢١٩.

الصفّ المسلم، ولا ينبغي أن تخرج عن هذا الإطار محدثة اختلافا وشقاقا بين المسلمين ؛ يقول عليه الصلاة والسلام: " اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فقوموا عنه"(١). والحكمة في القيام عنه عند الاختلاف هي: قطع الطريق على المختلفين فيه؛ حتى لا يتحوّل الاختلاف الى جدل عقيم، وتنظير للآراء، وانتصار لها. وقد بيّن عليه الصلاة والسلام أنه ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا : بل هم قوم خصمون "(الزخرف: ٥٨)(٢). إن هذه الاختلافات مردّها الى أمرين:

الأول : غلبة الهوى، أو التعصب، أو عدم الأهلية.

والثاني: عدم الاحتكام الى منهج هادف الى تحقيق مقاصد القرآن العظيم.

* * *

---

(١) البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة(١٣/ ٣٣٥ ، ٧٣٦٤)

(٢) حديث حسن، انظر: محمد ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه(١٩٨٨) مكتب التربية العربي، الرياض (١/ ١٤-١٥، ح٤٥).

المبحث الثاني

الأسس المنهجية في التفسير

من خلال إرشاد الرسول الصحابة الى فهم القرآن

١ - تقديم العمل بالنص الصريح على الاجتهاد

تشير نصوص عديدة في السنّة الى وجوب النظر في القرآن وتدبّره، لاستنباط الحكم والفوائد التي ترشد الى كون القرآن كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة. لكن بعضا من تلك النصوص يرشد الى ضرورة الوقوف عند ظاهر النصّ قطعا للتأويل، وضبطا لمنهج العمل بالقرآن الكريم، يشهد لذلك ما روي عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنت أصلّي في المسجد فدعاني رسول الله فلم أجبه، ثم أتيته، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلّي، فقال: ألم يقل الله: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ (الأنفال: ٢٤) . . . ثم علّمه سورة الفاتحة التي هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيه(١). إن اجتهاد الصحابي تمثل في تسويغ الاستمرار في الطّاعة، وعدم الاستجابة الفورية لرسول الله حين دعاه، فاستشهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالآية الكريمة. والشاهد هنا أن المنهج الصحيح يقضي بتقديم العمل بالنصّ الصريح على الأفهام والاجتهادات الفردية، لئلا تكون النصوص عرضة للتأويلات الفردية الضيّقة المفضية الى التخلّف عن أداء بعض الواجبات الأكثر أهمية.

إن محدودية عقل الإنسان تحتّم عليه الوقوف عند حدود نصوص الوحي حتى لو لم تظهر له وجه الحكمة من تلك النصّوص؛ لأن الوحي كلام يتضمن معاني غير محدودة تفي بحاجات العصور كلها الى يوم الدين. ومن هنا يظهر أن سبب وقوع بعض مفسري القرآن في مشكلات التأويل هو: محاولتهم الوقوف على كل معاني القرآن على وجه التفصيل بدون ملاحظة هذا البعد، أو

---

(١) البخاري، كتاب التفسير(٨/ ١٥٦، ح٤٤٧٤)

الوقوف على كثير من القضايا المحيطة بالنص.

وفي هذا السياق نجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتأويل ما يرى في صلح الحديبية دنية تلحق بديننا، والقرآن أراد لنا العزّة والقوّة، وألحّ عمر كثيرا على رسول الله ... ولم يعن رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتراض عمر وإلحاحه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يصدر عن فعله هذا إلا بإعلام الوحي، فكان فعله حجّة ، وهو رسول الله ولن يضيّعه ... قال عمر: فما نشبت أن سمعت صارخا يصرخ بي، فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل فيّ قرآن، فجئت رسول الله فسلّمت عليه، فقال: لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحبّ اليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إنا فتحنا لك فتحا مبينا﴾ (الفتح: ١) (١). والشاهد هنا أن عمر اجتهد ورأى أن الصلح فيه ذلّة ومهانة للمسلمين ، فاعرض رسول الله عن اجتهاده وسؤاله ؛ لأن الوضع يقتضي الوقوف عند النص. على أن الاجتهاد في فهم النصوص ، ومعرفة وجه الحكمة فيها مطلب ضروري.

ولذلك ، كان حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم على الوقوف عند كتاب الله، يؤيّد تقديم العمل بهذه النصوص على تلك الاجتهادات، ويدلّ له - أيضا- ما روى جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله حين خرج من المسجد وهو يريد الصفا، وهو يقول: نبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا(٢). وفي هذا الفعل قطع لكل تأويل أو اجتهاد متوجّه الى تحديد بداية السعي.

ونجد -على سبيل المثال- أن تحريم الرجل امرأته على نفسه لا يعدّ طلاقا، بل يمين يكفّر عنها صاحبها، وعليه لا ينبغي لأحد أن يستنبط منه التحريم. وبهذا ردّ ابن عباس على من يقول خلاف ذلك، فقال: من حرّم امرأته فليس بشيء ، وقرأ: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾(٣) وفيه كذلك الوقوف عند حدود كتاب الله تعالى وعدم تجاوزها بالاجتهاد. كذلك

---

(١) فتح الباري ، كتاب التفسير (٨/ ٥٨٢، ح٤٨٣٣.

(٢) مالك بن أنس: الموطأ ، تعليق محمد عبدالباقي(بلا تاريخ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، كتاب الحج، (١/ ٣٧٢، ح١٢٦).

(٣) البخاري ، كتاب الطلاق (٩/ ٣٧٤، ح٥٢٦٦)

أنكر ابن عباس على ذلك الذي أخبره أنه طلّق امرأته مائة تطليقة قائلا: طلّقت منك بثلاث، وسبع وتسعين اتّخذت بها آيات الله هزوا(١) ، فالوقوف عند حدود ما أنزل الله جل جلاله أساس في منهج التعامل مع كتاب الله. وبذلك يعلم أن سبب ظهور كثير من التأويلات الغريبة على مقاصد القرآن وهداياته وتشريعاته، تلك التأويلات التي تبنتها فرق عديدة قديما وحديثا كان نتيجة إهمالها هذا الأساس في التعامل مع كتاب الله تعالى.

٢ - تجاوز النظر السطحي القاصر في القرآن الكريم

لا يقتضي الوقوف عند ظاهر النصّ ترسيخ منهج النظر السطحي في القرآن الكريم، إلا إذا أغفل المتفهّم له الوقوف على مقاصده الجامعة ، وأهدافه الكلية، فيقع عندها في إشكالات منهجية تنحرف به عن تلك المقاصد والأهداف ، كأن يضرب بعض القرآن ببعض لتكون بذلك محل جدل واختلاف، فيضطر العلماء الى وضع كتابات لدفع توهم الاضطراب عن آي الكتاب، أو تنزيه القرآن عن المطاعن. وقد حذّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا النظر القاصر في القرآن الكريم، فعن عائشة قالت: تلا رسول الله هذه الآية: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب﴾ الى قوله: ﴿وما يذّكر إلا أولوا الألباب﴾ (آل عمران: ٧). فقال: يا عائشة! إذا رأيتم الذي يجادلون فيه، فهم الذين عناهم الله فاحذروهم(٢). وكثير من الفرق التي ظهرت في تاريخ الإسلام جادلت في كتاب الله، وتحوّلت به عن مقاصده وأهدافه انتصارا لآرائها واجتهاداتها ؛ فالنظر القاصر

---

(١) مالك، الموطأ ، كتاب الطلاق(٢/ ٥٥٠ ح١ ، وفي هذا روى النسائي أن رسول الله أخبر عن رجل طلّق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً. فقام غضبان، ثم قال: أيلعب بكتاب الله عزّ وجلّ وأنا بين أظهركم، حتى قام رجل فقال: يارسول الله، الا أقتله؟ كتاب الطلاق(٦/ ١٤٢-١٤٣ح٣٤٠١ قال الألباني: رجاله ثقات. لكنه من رواية مخرمة عن أبيه ولم يسمع منه. انظر: مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (١٩٧٩) المكتب الإسلامي، بيروت (٢/ ٩٨١) هامش.

(٢) الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه ح٤٤، ١/ ١٤، وهو عند البخاري ، كتاب التفسير ٨/ ٢٠٩، ح٤٥٤٧.

قد حدّ كثيرا من آفاق النصّ القرآني.

لقد أثير جدل حول بعض مفاهيم القرآن ، ويرجع السبب في ذلك الى فساد منهج النظر في القرآن. ومن ذلك ــ مثلا ــ مفهوم القضاء والقدر الذي ورد النهي عن الخوض فيه، فحين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهم يتنازعون في القدر، غضب حتى احمّر وجهه كأنما فقئ في وجهه حبّ الرمّان، فقال: أفبهذا امرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألاّ تنازعوا فيه(١). وفي رواية ابن ماجة قال: بهذا أمرتم ، أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم(٢). والنظر في القدر على هذه الصورة التي تجعل بعض نصوص القرآن في مواجهة بعض يدل على مبلغ الإنحطاط في مستوى التفكير، ويبيّن مدى ضمور العقل في التعامل مع هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أفيعقل أن يُلغى الإنسان كله: عقلا وإرادة ليصير الى جنّة أو نار بما لم تكسب يداه؟ أم يُعقل أن يُلغى الأخذ بالأسباب بحجة إن الله كتب على كل إنسان مقعده في الجنّة أو في النار؟ أيفهم كلام الحكيم العليم سبحانه على هذه الطريقة !! إن هذا الفهم يقود الى التقاعس عن العمل، وتعطيل أحكام الشريعة، ويرمي بـ "الإنسان الخليفة" في مكان هاوية سحيقة. ولا يخفى أن هذا الفهم قاد إليه الغفلة عن استيعاب النصوص القرآنية واستقرائها، أو بعبارة أخرى: غياب منهج النظر الصحيح في القرآن.

لقد وضّح رسول الله صلى الله عليه وسلم مفهوم "القدر" ــ بجملة واحدة تنفي كل الأوهام والشكوك، وتقطع القيل والقال، وتجعل للمسلم صورة فاعلة مؤثّرة في هذا الوجود، ومتفاعلة مع سننه الكونية، ومتجّهة الى عمارة الأرض، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾(الشمس:٧-٨). وقوله: ﴿فأما من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى

---

(١) حديث حسن، انظر: الألباني، صحيح سنن الترمذي ، أبواب القدر (٢/ ٢٢٣، ١٧٣٢.

(٢) الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، باب في القدر(١/ ٢١،ح٦٩.

فسنيسره لليسرى﴾(الليل: ٥-٧): "كلّ يعمل لما خلق له، أو لما يسّر له"[١]. فالقضاء والقدر عقيدة تدفع الى العمل، وهو تفسير يحقّق القصد والغاية في الاعتقاد و السلوك، وهذا الذي يهمّ الإنسان ويعينه على القيام بمهمّات الخلافة وعمارة الأرض.

كذلك، ظلّ التحذير النبوي من تشويه الصورة الناصعة للقراءة العملية للقرآن، أو الانحراف بالقراءة عن مقاصدها بابتغاء عرض الحياة الدنيا مستمرّا، فحين خرج صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يقرؤون القرآن، وفيهم الأعرابي والعجمي، فقال: إقرأوا فكل حسن، وسيجئ أقوام يقيمونه كما يقام القدح، يتعجّلونه ولا يتأجّلونه[٢]. وفي رواية: "إن بعدي من أمتي - أو سيكون بعدي من أمتي - قوم يقرأون القرآن لا يجاوز حلاقمهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرميّة، ثم لا يعودون فيه، هم شرّ الخلق والخليقة"[٣]. هذا هو المنهج السطحي في التعامل مع النص: إقامة ظاهره، وعدم نفاذ العقل الى حقيقة مقاصده، لانشغاله بتحقيق حاجات عاجلة، وغياب الأفق الواسع في فهم القرآن.

وقد عرّض الرسول صلى الله عليه وسلم بفهم عدي بن حاتم الطائي الذي لم يتجاوز ظاهر قوله تعالى:﴿وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾(البقرة: ١٨٧) فقد عمد الى عقال أسود، والى عقال أبيض فجعلهما تحت وساده، وجعل ينظر من الليل، فلا يستبين له، فغدا على رسول الله فذكر ذلك له، فقال: إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار. وفي رواية: قلت يا رسول الله: ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا: أن أبصرت الخيطين، ثم قال: لا ، بل هما سواد الليل وبياض النهار[٤].

وقد يجهل القارئ المعنى الذي يؤدّيه النصّ القرآني أحيانا، وعندئذ يلزمه

---

(١) البخاري ، كتاب التفسير (٨/ ٧٠٨ ، ح٤٩٤٥)
(٢) صحيح ، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود (١/ ١٥٦، ح٧٤٠)
(٣) مسلم، كتاب الزكاة (٢/ ٧٥٠ ، ح١٠٦٧)
(٤) البخاري ، كتاب التفسير (٨/ ١٨٢ ، ح٤٥٠٩ ، ٤٥١٠)

الوقوف عند حدود دلالته، أو عند المعنى المعقول المتبادر منه، والإيمان بأنه من عند الله تعالى، والإقرار بأنه حقّ لا مرية فيه، ومما يشهد لذلك في الهدي النبوي ، أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ دخل قلوبهم منها شئ ، وفي رواية: بركوا على الركبّ فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير . . . الحديث(١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام توجّه الى التحذير من أن يخيّم الشكّ على قلوبهم فيسلكوا سبيل أهل الكتابين في تعاملهم مع كتاب ربّهم ، فلم يحاولوا ابتداء أن يفهموا النصّ ، وحكموا بمجرد فهم ظاهر الآية بمعزل عن بقية الآيات، ومن المقرر في آيات مكية سابقة أن الرسول مبعوث رحمة للعالمين، وشريعته شريعة رحمة، والقرآن كتاب هدى ورحمة . . . فالفهم الذي نشأ هو التزام بالظاهر، والظاهر هنا يتنافى مع تلك الآيات السابقة، إذ أن ترتيب الحساب على مجرد ما ينشأ في القلب من وساوس وخواطر يتنافى مع رسالة الرحمة التي بعث بها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وسلم الذي أرشدهم الى تجاوز هذا الفهم، والتسليم الكلي لله أرحم الراحمين.

وهو الشعور نفسه الذي راودهم حين نزل قوله تعالى: ﴿من يعمل سوء يجز به﴾ فبلغ من بعضهم مبلغا شديدا، فقال رسول الله: قاربوا وسدّدوا، ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها"(٢) ، ذلك أن فهم النصّ بمعزل عن نصوص أخرى يضيّق آفاق معاني القرآن الكريم، والرسول عليه الصلاة والسلام يبيّن أن الجزاء يكون في الدنيا، ويكون بما يصاب به المسلم من آفات وأمراض. المهمّ أن يحرص المسلم على أن يبقى بمنأى عن السوء وفعل السوء بكل ما أوتي من عزيمة وقوّة. وهو معنى التسديد والمقاربة في إرشاده صلى الله عليه وسلم.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان (١/ ١١٥، ح١٩٩).

(٢) مسلم، كتاب البرّ والصلة (٤/ ١٩٩٣، ح٢٥٧٤)

والوقوف عند الظاهر في بعض النصوص فيه إجحاف بمنهج النظر في القرآن، وقد فهم بعضهم من قوله تعالى: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن﴾ (الطلاق: ١) أن لا يجوز للمرأة المطلقة المعتدّة أن تخرج من بيتها مطلقا وقوفا عند ظاهر النصّ ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يرفض هذا الفهم الذي هو تطبيق آلي أو تلقائي للنصّ دون وعي لمقاصده، فهل خروج المطلقة البائن بهدف تحقيق مصلحة أخرى غير جائز؟ كلاّ ، ففي حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: طلّقت خالتي، فأرادت أن تجدّ نخلها، فزجرها رجل أن تخرج ، فأتت النبيّ فقال: بلى، فجدّي نخلك، فإنك عسى أن تصدّقي أو تفعلي معروفا(١). فإدراك ما يهدف اليه النصّ ، والوقوف على مقاصده ، وتجنب التطبيق الآلي لنصوص القرآن عمل منهجي في التعامل مع القرآن الكريم.

وحتى يتأكد هذا الأساس في مفهوم الصحابة كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يترك لهم حرية الاجتهاد في فهم القرآن وتدبّره واستنباط الأحكام منه، وكان يقرّ ما كان من اجتهادهم صحيحا، ويرفض منه ما لا يتناسب مع مقاصده وأهدافه ، فقد أقرّ فهم أبي سعيد الخدري في قراءته الفاتحة على ملدوغ حتى شفي(٢) هذا الإقرار يدخل في مفهوم السنّة النبوية التقريرية. ويشير الى تلك الفرصة التي منحتها العناية الإلهية للعقل البشري لفهم الوحي والامتثال لسلطانه حتى في زمن النبوّة.

وأقرّ عمرو بنَ العاص على فعله حين صلّى بالنّاس وهو جنب، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السّلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمّمت، ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت: إني سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيما﴾، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم،

---

(١) مسلم، كتاب الطلاق (٢/ ١١٢١ح١٤٨٣)

(٢) البخاري ، كتاب الطب (١٠/ ٢٠٩ ، ح٥٧٤٩)

ولم يقل شيئا[1]. لقد أدرك عمرو أن الوحي جاء ليرفع الإصر والحرج والعسر عن الناس، فكيف يكون سببا في إيقاعهم في الأذى والحرج؟ وهذا ليس مستغربا على ذكاء عمرو وفطنته. فالتفات المفسر الى مقاصد الوحي واستحضارها في فهم النص فهما عمليا يقوم على ربطه ببقية النصوص في ضوء القضية الواقعية التي تواجهه أساس منهجي في فهم القرآن الكريم وتفسيره.

وأقرّ رجلا من الأنصار كان يؤمّهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، فكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه.. فلما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّا يحمله على لزوم هذه السورة كلّ ركعة، قال: إني أحبّها، فقال رسول الله: حبّك إيّاها أدخلك الجنّة[2]. لأن هذا الفهم لا يستحق الإنكار مادام الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن عامّا، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر من القرآن﴾ (المزّمل: ١١). ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بسؤاله هذا أراد أن يلفت أصحابه الى ما يحدثه القرآن في النفوس من أثر الى حدّ تعلق القلوب العقولة به ، دون ملل من تكراره ولو في كل ركعة من كل صلاة.

ويشهد لتعليم النبيّ صلى الله عليه وسلم الصحابة الاستنباط من القرآن ما روي عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله! ماتت فلانة - تعني الشاة - قال: فلولا أخذتم مسكها، فقالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها: إنما قال الله عزّ وجل: ﴿قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا ان يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير﴾ (الأنعام: ١٤٥) فإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه فتنتفعوا به، فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته فأخذت منه قِربة حتى تخرّقت عندها[3].

---

(١) صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن أبي داود(١/٦٨، ح٣٢٤)

(٢) حسن صحيح، انظر: الألباني ، صحيح سنن الترمذي (٣/٧-٨ ، ح٢٣٢٣.

(٣) رواه أحمد: (١/٣٢٧-٣٢٨)ورواه البخاري مختصراً، كتاب الإيمان (١١/٥٦٩، ح٦٦٨٦)

هذا وغيره من إقرارات الرسول للصحابه أو الإنكار عليهم ، أوتعليمهم الاستنباط من كتاب الله - يعمل على إزالة أي إرهاب فكري يحول بين المرء وبين فهم النصّ ، أو يدعه يخيّم على عقلية المتفهّم له. فإن بقاء الفهم متعلقا بظاهر النصّ لا يتجاوزه جناية على النصّ ، وبه يعلم مدى الخطر الناجم عن التزام من يحرم نفسه حقّ فهم الكتاب المنزّل بوقوفه عند حدود ما قاله السابقون من المفسرين.

٣ - تفسير القرآن بالقرآن

وجّه رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الى القرآن الكريم نفسه لفهم معانيه، ومعرفة دلالات مفرداته؛ لأنه نزل يفسّر بعضه بعضا، ويدل بعضه على معنى بعض. وربما التبست دلالة كلمة على فهم بعض الصحابة، فيرجعهم رسول الله الى القرآن نفسه لفهمها. ويدل لذلك أنه لما نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ (الأنعام: ٨٢) شقّ ذلك على أصحاب رسول الله، وقالوا: أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال رسول الله: إنه ليس بذاك، الا تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يا بنيّ لا تشرك بالله إن الشّرك لظلم عظيم﴾(لقمان: ١٣) [١]. فليس الظلم دائما يجري معناه على مجاوزة الحدّ ، بل قد تتوسع دلالته لتشمل الشرك، وهو أكبر من مجاوزة ذنب صغير أو معصية. فالظلم على هذا مراتب، هذه أعظمها. ويتبيّن في ضوء هذا الأساس كم جنى أصحاب المذاهب وأتباع الفرق على القرآن حينما جعلوا القرآن عضين، يواجه بعضه بعضا!

كذلك أرشد الى فهم قوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ (الأنعام: ٥٩) من خلال القرآن نفسه، فكان يقول: مفاتح الغيب خمس، ويقرأ قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة، وينزّل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير﴾(لقمان: ٣٤) [٢].

---

(١) البخاري ، كتاب التفسير (٨/ ٥١٣ ، ح٤٧٧٦).

(٢) البخاري ، كتاب التفسير (٨/ ٥١٣ ، ح٤٧٧٨).

وفسّر رسول الله الحساب اليسير بالعرض: ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ (الحاقة: ٨) ، وهو أهون وأيسر مراحل الحساب، فعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس أحد يحاسب إلا هلك، قالت: قلت يا رسول الله! جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عزّ وجل: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾؟ قال: ذلك العرض ، يعرضون، ومن نوقش الحساب هلك(١) .

ولما أشكل معنى الكلالة(النساء: ١٢) على عمر أرشده رسول الله الى القرآن نفسه (النساء: ١٧٦)(٢) .

إن أي فهم جزئي لآية بمعزل عن بقية الآيات سينتج أفهاما تعيق حركة المجتمع الإسلامي بل حركة الأمّة، ويقيدها بأغلال الفهم السطحي أو الجزئي، ومن ثمّ سيكون استنباط المعنى أو الحكم الذي ينسجم مع مقاصد القرآن أمرا في غاية الصعوبة.

٤ - النظر في السياق

إذا كان تفسير القرآن في ضوء القرآن في المواضع المختلفة يُعدّ أساسا مهمّا في التفسير، فإنّ النظر في سياق الآية الواحدة لا يقل أهمية عن سابقه بوصفه واحدا من أسس التفسير الضرورية في فهم القرآن. ولقد وجّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أصحابه الى هذا الأساس في إطار عملية الترشيد التي كان يشرف بها على فهمهم للقرآن الكريم ،ومما يشهد لذلك أن عائشة رضي الله عنها سالت رسول الله عن هذا الآية: ﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنّهم الى ربّهم راجعون﴾ (المؤمنون٦٠) ، قالت عائشة: قلت: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصدّيق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون وهم يخافون الا يقبل منهم: ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾(٣) ، ذلك أن السياق في حديث عن أولئك

---

(١) البخاري ، كتاب التفسير (٨/ ٦٩٧، ح ٤٩٣٩)

(٢) مسلم ، الفرائض (٣/ ١٢٣٦ ،ح٩)

(٣) قال أبوبكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي: هذا الحديث كما ذكره أبوعيسى

الذين هم من خشية ربّهم مشفقون، وليس عن أولئك الذين يقترفون المعاصي والمنكرات ثم هم مشفقون من لقاء ربّهم، ولا عمّن يرتكب معصية ثم يتوب منها.

ويدل له كذلك إرشاد رسول الله لأم المؤمنين حفصة بضرورة قراءة النصّ كاملا ؛ لئلا يؤثر قراءة جزء منه على فهم المعنى أو الحكم ففي قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلاّ واردها﴾ (مريم: ٧١) روى مسلم عن أم مبشر الأنصارية أنها سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة: لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: وإن منكم إلا واردها"؟ فقال النبي: قد قال الله تعالى: ﴿ثم ننجّي الذي اتقّوا ونذر الظالمين فيها جثيا﴾(مريم :٧٢)[١]. فالآيتان في سياق واحد، وبتر السياق يلحق خللا بالمعنى.

٥ - فهم القرآن في ضوء السنن الإلهية

في قضايا ذات أهمية بالغة على فكر الأمّة ومستقبلها ووحدتها يلفت الرسول صلى الله عليه وسلم النظر الى ضرورة فهم سنن الله تعالى في الكون، خاصّة تلك السنن القائمة في حياة الأمم والمجتمعات، فسنّة النصر - مثلا - لا تتحقّق إلا بعد استيفاء شروطه، ولكن خبّاب بن الأرتّ وغيره رضي الله عنهم استعجلوا وقوعه قبل أوانه، فقال: شكونا الى رسول الله وهو متوسّد بردة له في ظلّ الكعبة، فقلنا: الا تستنصر لنا؟ الا تدعو الله لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتي بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليتمنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[٢]. فيجب أن يكون واضحا أن النصر لا يتحقّق بمجرد

مقطوع من طريق موصول من آخر، ولكنه صحيح، عارضة الأحوذي (١٩٩٥) دار إحياء التراث العربي، بيروت (٣٩/١٢).

(١) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة (١٩٤٢/٤، ح٢٤٩٦)

(٢) البخاري، كتاب المناقب ، ح٣٦١٢، ٦١٩/٦.

الدعاء، أو بمجرد طلب النصر دون إعداد واستعداد، ودون أخذ بأسباب النصر، ودون وعي لأحوال الواقع على مختلف الصعد، لذلك ذكر أن كل شئ يخضع لسنن، وهذا الدين سيتحقّق له النصر وعدا من الله تعالى بأن يظهره على الدّين كلّه ، ولكن لكل أجل كتاب، فالاستعجال بعد ذلك عاطفة أو تسّرع، وهو منهج قد يوقع في مشكلات.

هذا مثال من الهدي النبوي يوضّح ما للسنن الإلهية المبثوثة في كثير من السور من شأن في فهم القرآن في عملية التغيير الإجتماعي والسياسي.

٦ - الحذر من تنزيل نصوص القرآن على الواقع بما يخالف هدي القرآن، والحذر من التأويلات العقلية المتكلفة

من الأسس المنهجية التي أصّلها الرسول صلى الله عليه وسلم النظر في القرآن وتأويله بما لا يحلّ حراما أو يحرّم حلالا، أو يتنافى مع هدي القرآن الكريم ومقاصده، فالوقوف الواعي عند نصوص القرآن، والحذر من تنزيلها على الواقع بلا منهج، وعدم تجاوزها بتأويلات باطلة .. كل ذلك أساس هام في منهج التعامل مع القرآن. أمّا حين يستند التأويل ويرتكز على البحث عمّا في قلوب الناس، ومحاولة اتّهامهم في نيّاتهم على وجه التعيين، ومن ثمّ صرف آيات القرآن لتكون مسوّغا لسفك الدماء ومظلّة له، فهذا هو المرفوض في الهدي النبوي. وعليه فلا ينبغي بتأويل ما ضرب أعناق الناس ما داموا يشهدون ويصلّون. لقد بلغ إنكار النبيّ صلى الله عليه وسلم أشدّه حين أنّب أسامة بن زيد على قتله رجلا مشركا كان يطارده، فأسلم الرجل ، فقتله أسامة، فقال له رسول الله: " يا أسامة، أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟ قال: قلت: إنما قالها متعوّذا ، قال: فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم "(١).

ومما يشهد لهذا -أيضا- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس بين ظهري الناس، إذ جاءه رجل فسارّه، فلم ندر ما سارّه حتى جهر رسول الله، فإذا هو يستأذنه في قتل رجل من المنافقين، فقال رسول الله حين

---

(١) مسلم، كتاب الايمان ١/ ٩٧ ح١٥٩.

جهـر: أليس يشهد الا إله إلا الله وأن محـمدا رسول الله؟ فـقال الرجل: بلى ولا شهـادة، قال: أليس يصلي؟ قـال: بلى، ولا صلاة له، قـال رسول الله: أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم(١).

قـال البـاجي: قـصـد النبيّ بسؤاله: المعـنى المبـيح لدمـه من ترك إظهـار الشهـادتين وتأبّيه عن الصلاة، فلـمّا قال: إنه يظهـر الشهادتين ويقـيم الصلاة، قال النبيّ: أولئك الذين نـهاني الله عنهم، ولم ينظر الى قوله: ولا شـهادة له، ولا صلاة له؛ لأنّ القائل بذلك لا طريق له الى معـرفة ما في قلبه، ولا يعرف هل له شهـادة أو صلاة، وإنما ذلك على حسب ما اعـتقد فيـه لما رأى من ميله الى أقاربه من المنافقين والمشركين(٢).

ومما يمكن أن يدخل تحت هذا الأسـاس: التأويل المتـحايل على نـصوص القرآن لإباحة ما حرّم الله، أو تحريم ما أباح الله، فقد روي أن رجلا سأل ابنَ عبـاس عمّـا يعصـر من العنب؟ فقـال: إن رجلا أهدى لرسـول الله صلى الله عليه وسلم راوية خمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل علمت أن الله حرّمها؟ قال: لا، قال: فسـارّ إنسانا الى جنبه، فقال له رسول الله بم ساررته؟ قـال: أمرته ببيعـها، فقال: إنّ الـذي حرّم شربها حـرّم بيعها، فـفتح المزادتين حتى ذهب ما فيهما(٣).

كـذلك رفض رسـول الله صلى الله علـيه وسلـم التأويـل المتكلف الذي يقضي بالحكم على النصوص بمحض هوى العقل ورغـبته، ومما يشهد لذلك "

---

(١) أبوبكر أحـمد بن الحـسين البيـهقي: السنن الكبـرى، تحقـيق محـمد عـبدالقـادر عطا (١٩٩٤)، دار الكتب العلمية، بيروت ٣/ ٥١٢، ح٦٥٠٢، مالك، الموطأ ، كتاب قصـر الصلاة في الـسفر ١/ ١٧١، ح٨٤ قـال ابن عبـدالبر: رواه سـائر رواة الموطأ مرسـلاً إلا روح بن عبادة فـإنه رواه عن مالك مسنـداً متصـلاً. انظر: جلال الدين السيوطي، تنوير الحوالك (بلا تاريخ) دار الفكر، بيروت ١/ ١٨٥، ورواه أحمد في المسند حـقّق تحت إشراف الـدكتـور سمـيـر المجذوب (١٩٩٣) المكتب الإسـلامي، بيروت ٥/ ٥٣٨ ، ح٢٣٦٦٥

(٢) مـحمـد زكريا الكاندهلوي، أوجـز المسـالك إلى موطأ مـالك(١٩٨٩) دار الفكر، بيروت ٣/ ٢٩٨

(٣) مسلم، كتاب المساقاة (٣/ ١٢٠٦ ، ح٦٨

أنه -عليه الصلاة والسلام - حين قضى في الجنين يقتل في بطن أمّه بغرّة عبد أو وليدة على رجل، قال الذي قضي عليه: كيف أغرم من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل؟ ومثل ذلك يطل. فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكهّان[1]. وواضح أن التأويل العقلي حين يتدخل ليبطل واجبا، أو يعطل سنّة لا يمكن قبوله. فقد لفّ هذا الرجل القضية وأخرجها في ثوب الحقّ، ونظر الى جهة نفسه فحسب، ولم ينظر الى الضرر الذي لحق بالطرف الآخر.

فوظيفة التفسير أن يقف بالمرصاد لكل تأويل باطل ينحرف عن هدي القرآن الكريم ويعيده الى المعنى الذي يحقّق مقاصده.

٧ - توجيه التفسير الى مجموع الأمّة

لأن القرآن خطاب يتوجّه الى كل إنسان على وجه الأرض، فإنّ تفسيره ينبغي أن يحافظ على مجرى خطابه، وهذا -بالفعل - ما تميّز به الهدي النبوي في تفسير القرآن الكريم، فكانت المعاني أو اللغة التي يفسّر بها رسول الله القرآن في متناول الأفهام كلها. ومعاني التفسير المستنبطة متوجّهة الى الناس كلهم. لقد استعمل صلى الله عليه وسلم لغة العصر من أساليب ووسائل في التعبير عن معاني القرآن؛ ليعيها المتفهمون، ويستوعبها مجموع الناس. فتوجّه التفسير الى مجموع الأمّة، وعدم توجّهه الى فئة النحاة واللغويين ، أو الى فئة الفقهاء والمحدّثين، أو الى فئة الفلاسفة والمتكلمين . . . عمل منهجي في التعامل مع كتاب الله. وإذا ما تحقّق فهم القرآن لدى مجموع الأمّة، فإنّ الأمل في تغيير اجتماعي من جرّاء هذه النقلة النوعية في منهج فهم القرآن يحدو هذه العملية. لقد كان رسول الله يقرّب معاني القرآن بكل أسلوب ؛ ومما يدل لذلك ما رواه ابن مسعود قال: خطّ لنا رسول الله خطّا، ثم قال: هذا سبيل الله ، ثم خطّ خطوطا عن يمينه وعن شماله ، ثم قال: هذه سبل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ : وأن هذا صراطي

---

(١) البخاري، كتاب الطب (٢١٦/١٠ ، ح٥٧٦)

مستقيما فاتّبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله" (الأنعام: ١٥٣)[١]. والأمثال والتشبيهات المذكورة في الهدي النبوي عموما متوجهة الى تحقيق هذا الغرض. وهو عمل جدير أن يحتذى خاصّة أن بعض المفسرين اليوم يلهج بلسان علم الكلام والمنطق في تفسير القرآن حتى لا يجد لتفسيره قارئا إلا نفسه!

---

[١] الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب التفسير (٢/٣١٨) ورواه أحمد ، المسند (١/٤٣٥)

المبحث الثالث

الضوابط العامّة لترشيد فهم القرآن والعمل به

راقب النبيّ صلى الله عليه وسلم سلوك الصحابة المنبثق عن فهمهم للخطاب القرآني، ليكون هذا السلوك استجابة فعلية واقعية واعية لذلك الخطاب. ونجد هذا الترشيد واقعا مرّة أمرا، ومرّة إنكارا ونهيا، ومرّة تصحيحا وتقويما . . . على حسب الفهم أو العمل الذي يصدر من الصحابي، وعلى سبيل المثال، كان صلى الله عليه وسلم يحضّ بعض أصحابه على دوام قيام الليل، فقال موجّها الخطاب لبعض أصحابه : يا عبد الله! لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل" (١) مع ان القيام ليس واجبا، لكن تاركه استحق الإنكار بسبب فوات ما في القيام من تزكية وتهذيب للنفس، وتقوية لها على الإيمان. وهذا مقصد قرآني. فالتعامل مع النصّ هنا لم يرد في إطار ما ذكره الأصوليون من أحكام، بل جاء من حيث توجّهه الى النفس الإنسانية للوصول بها الى مرتبة الكمال. ولو أن كل خطاب نظرنا فيه من زاوية الحلّ والحرمة فقط ، لتوقف العمل بكثير من نصوص القرآن الداعية الى تزكية الأنفس ، وهو منهج غير محمود.

ومن أبرز ضوابط عملية الترشيد لسلوك الصحابة :

أ - الوسطية والاعتدال في العمل : أهم ما كانت تتوجّه إليه عناية الرسول صلى الله عليه وسلم هو ملاحظة التزام الصحابة بهدي القرآن في واقع حياتهم التزاما واعيا بعيدا عن الغلوّ والتنطع، وبعيدا عن التبتّل والرهبانية، وبعيدا عن الإفراط أو التفريط في العمل. ومما يدل لذلك حديث عبد الله بن عمرو :" قال : قال لي رسول الله : " الم اخبر أنك تصوم الدّهر، وتقرأ القرآن كل ليلة؟ قلت بلى يا نبيّ الله ، ولم أرد بذلك إلاّ الخير، قال فصم صوم داود ــ وكان أعبد الناس ــ واقرأ القرآن في كل شهر، قال: قلت: يا نبيّ الله ، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل عشرين،

---

(١) البخاري، كتاب التهجّد ٣/٣٧، ح١١٥٢

قال قلت: يا نبيّ الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل عشر، قال: قلت: يا نبيّ الله، إني أطيق أفضل من ذلك، قال: فاقرأه في كل سبع، لا تزد على ذلك، قال: فشدّدت فشدّد عليّ (١). فمثل هذا الفعل يخلّ بمنهج التوازن في علاقة الشخص بنفسه، أو في علاقته بالناس من حوله ، فالاعتدال - حتى في العبادة - يحفظ هذا التوازن.

ب - القرآن لا يدعو الى إفراط أو رهبانية : إن الفهم الحقّ للقرآن الكريم لا يتوقف على إخلاص العبد لله في عمله فحسب، بل يتوقف أيضا على إدراك مقاصد القرآن وغاياته ، والعلم بطبيعة هذا الإنسان وما جبل عليه من غرائز وميول، لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل على تحقيق الفهم الذي يستجيب وينسجم مع فطرة الإنسان، ويتفق مع مقاصد القرآن، فقد أنكر فعل ثلاثة من أصحابه جاؤا الى بيوت أزواج النبيّ يسألون عن عبادته صلى الله عليه وسلم ، فلمّا أخبروا كأنّهم تقالوها، قالوا فأين نحن من رسول الله وقد غفر له ما تقدّم من ذنبه وماتأخر؟ فعزم أحدهم على صيام الدهر. وانقطع الثاني للعبادة. وعزف الثالث عن الزواج. فقال لهم : أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس مني (٢). وهذا الحديث يصحح الفهم برفضه كل أشكال التبتّل والرهبانية، ويدعو الى فهم يحفظ التوازن في سلوك الإنسان، ويقيمه على الإعتدال والوسطية. ولو سوّغ الرسول لهم هذا الفهم لكان ذريعة لكل من يأتي من بعدهم ليستنبط ما لا يتوافق مع الفطرة، ولا ينسجم مع مقاصد القرآن وهديه. "إن المشدّد في العبادة لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد ، فإنّه أمكن لاستمراره، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه، وأن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي الى الملل القاطع لأصلها، وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلا وترك التنفل يفضي الى إيثار البطالة وعدم النشاط الى العبادة وخير الأمور الوسط" (٣).

---

(١) البخاري، كتاب الصوم (٤/٢١٧) ح١٩٧٥، مسلم ، كتاب الصوم ح١٨١-١٩٢، ٢/ ٨١٢-٨١٧

(٢) البخاري ، كتاب النكاح ٩/ ١٠٤، ح٥٠٦٣

(٣) ابن حجر، فتح الباري ٩/ ١٠٥ -١٠٦

وتشير رواية أخرى الى مبلغ الإنكار على بعض الصحابة حين قال: لسنا كهيئتك ؛ إن الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، فيغضب الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا (١). إذ لا بدّ من تربية منهج الوسطية والاعتدال في الفهم والعمل. ومما يستفاد من الحديث : "مشروعية الغضب عند مخافة الأمر الشرعي ، والإنكار على الحاذق المتأهّل لفهم المعنى إذا قصّر في الفهم تحريضا له على التيقظ. (٢)

وفي حديث آخر ينكر على من حمّل نفسه عنتا، وأرهقها صعدا بصومه في سفر، وقد قال الله تعالى: ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّة من أيّام أخر﴾(البقرة: ١٨٤) فاقرّت مبدأ التيسير ورفع الحرج. كان النبيّ صلى الله عليه وسلم في سفر، فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس، وقد ظلّل عليه، فقال: ما له؟ قالوا: رجل صائم، فقال رسول الله: ليس من البرّ أن تصوموا في السفر(٣). والله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، وإن كان الأخذ بالعزيمة سيؤدي الى هلاك النفس، فالأخذ بالرخصة واجب.

وفي سياق آخر يدعو رسول الله الى عدم الإفراط في معاملة من ارتكب ذنبا ومعصية، فربما يتولّد عن هذا الإفراط المتمثل في القسوة في المعاملة آثارا سلبية لا تعود على المجتمع بخير، فعن عمر بن الخطاب أن رجلا في عهد رسول الله كان اسمه عبد الله، وكان يلقّب حمارا، وكان يضحك رسول الله أحيانا، وكان نبي الله قد جلده في الشراب، فأتي به يوما فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال رسول الله: لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحبّ الله ورسوله. وفي رواية، فقال له بعض القوم: ماله أخزاه الله. فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم- لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم (٤).

---

(١) البخاري ، كتاب الإيمان ١/ ٧٠ح٢٠

(٢) ابن حجر، فتح الباري ١/ ٧٢

(٣) البخاري ، كتاب الصوم ٤/ ١٨٣ رقم١٩٤٦

(٤) البخاري، كتاب الحدود ١٢/ ٧٥، ح٦٧٨، ٦٧٨١

وفي السياق نفسه ينهى القرآن الكريم عن الطعن والذم وهمز الآخرين ولمزهم ، في مثل قوله تعالى: ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾(الهمزة :١) ، وقوله :﴿ولا يغتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه﴾ (الحجرات:١٢) يتجلى المعنى العملي للآيات في ذلك الفهم المتبادر بلا لبس ولا تأويل، ولا يبقى بعد ذلك إلاّ وضع هذا النصّ موضع التنفيذ ؛ ففي قصة رجم الغامدية التي زنت، تذكر الرواية أن خالد بن الوليد رماها بحجر فتنضّح الدّم على وجه خالد فسبّها، فسمع رسول الله سبّه إيّاها، فقال: مهلا يا خالد! فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له . . . الحديث(١). هذا الفهم الذي أنكره الرسول على خالد مع وجود مسوّغ له دفعه الى سبّها، هذا الفهم يخالف هدي القرآن الذي يوجب على المسلم أن ينظر الى علاقات أشمل تربطه بالناس من حوله مسلمين كانوا أو غير مسلمين بوصفه الإنسان المتميّز بوعيه الحضاري ، المتوجّه نحو تحقيق واجب الخلافة، وإقامة العبودية لله تعالى. فإذا صدر الإنسان في سلوكه عن هذا الفهم ؛ فسيكون المأوى الذي يلجأ إليه الناس. وإن اقتصرت وظيفته على إصدار الأحكام والفتاوى ، وإطلاق الشتائم والسّباب ؛ فسينفر منه الناس، فضلا عن أن ذلك ليس من طبيعة عمل الداعية. وينبغي أن نعلم أنه لا يمكن أن يصلح حال الناس بمجرد الفتاوى وإطلاق الأحكام.

فالمعاني التي توضّح مثل هذه المفاهيم على هذه الصورة المؤثرة التي تدفع للالتزام ، وتبيّن الإطار الشامل الذي يربط علاقة الإنسان بالإنسان، وتتّجه الى المقاصد الكلية في القرآن - يعدّ بيانها من أهم واجبات مفسّر القرآن.

ج - **القرآن كتاب يسر وهدى ورحمة:** أنزل القرآن ليرفع اليأس والقنوط من حياة الناس، ويؤسس في نفس الفرد نظرة إيجابية متوازنة ، ليظلّ متفائلا فاعلا في هذه الحياة. وهذا ما رسّخه رسول الله صلى الله عليه وسلم في منهج تعامله مع القرآن، فقد أنكر على رجل أسرف في الدعاء فخفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله: هل كنت تدعو الله بشئ أو تسأله إياه؟ قال: نعم ، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في

---

(١) مسلم، كتاب الحدود ٣/ ١٣٢٣،ح٢٣

الدنيا، فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم: سبحان الله! لا تطيقه ولا تستطيعه، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟ قال: فدعا الله به فشفاه[1]. والعقلية الإيجابية تفترض أن يدعو الإنسان بالنجاة من عذاب الدنيا والآخرة، لأنه مخلوق ضعيف لا يتحمل مرضا ولا أذى، فكيف يسأل الله أن يعجّل له عذاب الآخرة مع أنه ليس بمقدور أحد أبدا ! هذا إفراط في اليأس.

كذلك شأن فهم آيات القرآن على نحو حرفي دون وعي لمقاصد القرآن وإدراك لروح نصوصه المبنية على التيسير ورفع الحرج، وقد بلغ إنكار رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم تسبّبوا بفقههم السطحي في قتل نفس مؤمنة حدّا لا يُتوقع ، فقد أصاب رجلا جرح في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم احتلم ، فأمر بالإغتسال، فاغتسل فمات، فبلغ ذلك رسول الله فقال : قتلوه، قتلهم الله، ألم يكن شفاء العيّ السؤال؟ . . .[2] هذا الفهم ينطلق أساسا ويقوم على الالتزام الآلي الحرفي السطحي بآية الغسل، ولم يأخذوا بالمقاصد الكلية للنصوص، وليس هذا فحسب بل لم يسألوا من هو أوعى منهم، وأقدر على فهم النصّ والفتوى.

د - **تصحيح المفاهيم** : هذا الضابط يتوجّه الى أهداف التفسير وأولوياته من حيث ارتباطه بأفهام الناس، فيتوجبّ عليه عندئذ التحقّق من سلامة تصوّر الناس لتلك المفاهيم. وقد توجّهت عناية الرسول صلى الله عليه وسلم الى هذا الهدف ؛ فصحّح بعض المفاهيم لقضايا نُظر اليها نظرة أحادية الإتجاه، ومن هذه المفاهيم مثلا : ما يرجع الى الإبتلاء من مرض كالحمّى وغيرها، فالنظر الى حال المبتلى سيولد حكما سلبيا وشؤما، لكن النظر في حكمة هذا الابتلاء سيعيد الى الحكم توازنه، يشهد لذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أم السائب - أو أمّ المسيّب - فقال: مالك تزفزفين؟ قالت: الحمّى، لا بارك الله فيها، فقال: لا تسبّي الحمّى، فإنّها تذهب خطايا

---

(١) مسلم، كتاب الذكر ٤/٢٠٦٨، ح٢٣

(٢) حسن، الألباني، صحيح سنن ابي داود ١/٦٨-٦٩، ٣٢٥، ٣٢٦

بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد(١). فليس هناك شرّ محض ، كما ليس هناك خير محض إلا في الآخرة، وأن الخير ما غلب نفعه على ضرّه، وأن الشرّ ما زاد ضرّه على نفعه(٢). وهذه الإضافة على معنى الحمّى تدفع اليأس والقنوط من جرّاء ما تسبّبه للإنسان. والقصد هنا الإشارة الى حكمة الإبتلاء بوجه عام ، فقد ورد في آيات كثيرة بيان أنه مما حكم الله به حياة الناس.

وفيما يتصل بالمظاهر الكونية نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسّرها تفسيرا ينسبها فيه الى خالقها ومسيّرها، فقد نهى عن سبّ الريح -مثلا- فقال: إن هذه الريح من روح الله، تأتي بالرحمة، وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبّوها، وسلوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرّها(٣). فالريح آية من آيات الله يجريها كيف يشاء، لكن يجب بيان أنها من فعل الله تعالى، وعدم تفسيرها بعيدا عن سلطانه عزّ وجلّ. وفي هذا بيان ضرورة الوقوف على السنن الطبيعية التي تحكم نظام الوجود على وفق تقدير الله تعالى، وأثر هذا السنن على النشاط الإنساني من حيث انسجامه أو عدم انسجامه مع هداية الوحي.

وفي رواية أخرى: كان رسول الله إذا كان يوم الريح والغيم، عرف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرّ به، وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألته. فقال: إني خشيت أن يكون عذابا سلّط على أمّتي ... وفي رواية: لعلّه يا عائشة! كما قال قوم عاد: " فلمّا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا "(الأحقاف: ٢٤)(٤). وهو تفسير ينسجم مع الناموس الكوني الذي يجري بتقدير الله تعالى وأمره.

وقد رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تفسّر هذه السنن الطبيعية لتعلي من شأن إنسان، أو تحط من قدر آخر، فلو افترضنا أن مولودا ولد أثناء

---

(١) مسلم، كتاب البر والصلة ٤/ ١٩٩٣، ح٥٣.

(٢) أبوبكرمحمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، احكام القرآن تحقيق علي البجاوي، دار الفكر ، بيروت ٣/ ١٣٥٣.

(٣) صحيح، الألباني، صحيح سنن أبي داود ، حديث صحيح ٣/ ٩٦٠، ح٤٢٥٠

(٤) مسلم، كتاب الاستسقاء ٢/ ٦١٦، ح١٤، ١٥

كسوف الشمس أو خسوف القمر فليس ذلك بمدعاة للتفاؤل أو التشاؤم، ولكن تلك سنّة إلهية في عالم الطبيعة. ولهذا نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون لحادثة كسوف الشمس حين وقعت في عهده أي ارتباط أو علاقة بموت ابنه ابراهيم عليه السلام، فقد زعم الناس أن كسوفها كان بسبب موته، فقال: "إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنهما آيتان من آيات الله عزّ وجلّ، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلّوا"(١). وفي هذا التوجيه النبوي تجسيد لهدي القرآن الكريم في تأصيل مبدأ وحدانية الله تعالى، ورفض كل أنماط الوثنية، وإزالة كل ما لحق بالمظاهر الكونية من خرافات وخزعبلات، ولو استمر الناس على مثل هذه الإعتقادات في الشمس والقمر لظلّت عبادة الأوثان قائمة. فتوجّه التفسير الى هذا الهدف عمل منهجي، وارتباط واقعي محكم.

وفي سياق آخر متعلق بفهم نصوص في التشريع والحلال والحرام، فهم بعض الصحابة أن الجنابة تعني النجاسة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وإن كنتم جنبا فاطهروا﴾(المائدة: ٦)، وعليه فإنّ الجنب لا يمكنه أن يصافح الآخرين أو يلتقي بهم، كذلك ظنّ حذيفة بن اليمان حين لاقى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو جنب، فحاد عنه، فاغتسل ثم جاء، فقال: كنت جنبا، فقال: إن المسلم لا ينجس(٢). فالجنابة لا يترتب عليها فيما يتصل بالناس شئ، ولا مانع من أن يأكل ويشرب، ويجلس ويتحدث ... فإذا قام الى الصلاة أو قراءة القرآن تطهّر فاغتسل.

وفي السياق نفسه نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يرفض الفهم القاضي بتعطيل الحدود أو استبدالها بفدية أو مال، فقد نطقت بعض الأفهام بجواز استبدال حدّ الزنا بالمال، كما ذكر ذلك الرجل لرسول الله: إن ابني كان عسيفا على هذا فزنى بامرأته، وإني أخبرت: أنّ على ابني الرّجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم؟ فأخبروني: أنّ ما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله: والذي نفسي

---

(١) مسلم، كتاب الكسوف ٢/٦٢٨، ح٢٢

(٢) مسلم، كتاب الحيض، ح١١٦، ١/٢٨٢

بيده لأقضين بينكم بكتاب الله، الوليدة والغنم ردّ عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . . . الحديث"(١) .

وحين يتأثر فهم هذه الحدود بهوى العقل أو برغبات النفس ، فإن الخطر على نصوص القرآن قوي وشديد، لأن الأمر لن يتوقف عند عقوبة واحدة، بل سيشمل غيره كذلك، وقد كان الترشيد النبوي واضحا وقويّا : " الوليدة والغنم ردّ عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . . . " . أما عاطفة الأبوّة التي تمخض عنها تصرّف ذلك الرجل في حقّ ابنه ، فهي كذلك مدعاة للإنكار ؛ لأن ليس هذا مكانها، ولأن حدود الله تعالى محقّقة لمصلحة إنسانية واجتماعية عامّة ، وفواتها محقّق لفوضى اجتماعية وأخلاقية خطيرة، وفي الواقع من الشواهد ما يؤيّد هذا الأمر.

وقد أنكر صلى الله عليه وسلم على أسامة بن زيد قبوله الشفاعة في حدّ سرقة والله سبحانه يقول: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم﴾ (المائدة: ٣٨) وقال له: أتشفع في حدّ من حدود الله؟ ثم قام خطيبا، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها(٢) .

وحين يختلف الناس في تقدير حال المسكين -مثلا - نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يحتكم الى القرآن في بيان أن المسكين ليس الذي تردّه الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي ليس له غنى ويستحي، أو لا يسأل الناس إلحافا، وفي رواية: إنما المسكين الذي يتعفّف، إقرأوا إن شئتم ﴿لا يسألون الناس إلحافا﴾(البقرة:٢٧٣)(٣) . فالمسكين في هذا المقام هو الفقير، ولكن الفرق بينهما يكمن في أن الفقير ظاهر حاله، ولا يجد حرجا في التعريض بفقره وحاجته أو التصريح بها. بينما ذلك الذي يتستر على حاله، الحريص على كتمان أمره على ما به من حاجة هو الذي يحسبه الجاهل غنيا من

---

(١) البخاري، كتاب الحدود ١٢/ ١٣٦-١٣٧، ح٦٨٢٧

(٢) مسلم، كتاب الحدود ٣/ ١٣١٥، ح٨

(٣) البخاري ، كتاب التفسير ، ٨/ ٢٠٢، ح٤٥٣٩

التعفف. وفي هذا التنبيه بعد اجتماعي يؤكد مفهوم التكافل المالي بين أفراد المجتمع الإسلامي.

وعليه فالمنهجية القويمة تقتضي أن توضّح معاني القرآن وتتأكد من خلال السنّة العملية التي أنزلت نصوص القرآن على الواقع، وحقّقت مقاصده. والمفسّر في تفسيره يعمل على توضيح هذه المعاني، وتصحيح مفهومها في أذهان الناس ليضبط سلوكهم، ويكون ذلك بالاحتكام الى القرآن. وإذا ظهر اليوم أن حقائق القرآن الكريم اختلطت في أذهان كثيرين، كان العبء الملقى على كاهل المفسر المنهجي ثقيلا جدًا.

هـ - عدم الرجم بالغيب : أخطر ما قد يتّصف به العقل البشري تجرّؤه على التّدخل في شؤون الغيب، أو الحكم على شئ رجما بالغيب ، أو تنبؤه بما سيقع في الغيب، وأي تفسير يخترق عالم الغيب وينبّئ عمّا سيقع فيه فسيكون مفتقرا الى المنهجية والموضوعية والأمانة العلمية. وقد ورد في السنّة ما يشير الى هذا ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها أن تشهد بالجنّة لصبيّ توفّي، قالت: توفّي صبي، فقلت: طوبى له ، عصفور من عصافير الجنّة لم يعمل سوء ولم يدركه، فقال: أوَ غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلا ، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم(١). إن الحكم بالجنّة أو النار على هذه الصورة القاطعة هو من شؤون الله جل جلاله، وليس من شؤون البشر. ولا شك في أن مثل هذا الفهم استند الى نصوص قرآنية تبشّر بالجنّة من لم يشرك بالله، ولم يرتكب السيئات والخطايا. وهذا الصبيّ تحقّق فيه هذا الأمر، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك على وجه التعيين ملفتا أن هذا علم مختصّ بالله عزّ وجلّ.

وفي هذا المعنى حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا

---

(١) مسلم، كتاب القدر ٤/ ٢٠٥٠، ح٣١

أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت له، وأحبطت عملك"[1].

فحين يعطي المسلم نفسه حقّ إغلاق باب رحمة الله في وجوه الآخرين يكون قد أساء فهم آيات عديدة تحذّر من اليأس والقنوط، وتبيّن أن الله ذو رحمة واسعة، وهو كما وصف نبيّه صلى الله عليه وسلم : "يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" [2].

و - **شمولية النظرة التفسيرية** : تنوّع البيان النبوي للقرآن الكريم، ولم يقف عند حدود الحلال والحرام أو التشريع بعبارة أخرى، ولكنه شمل ميادين كثيرة ، وفسّر مظاهر كونية عديدة ، هي عرضة لأن تتوجّه إليها الأسئلة؛ لتتحقّق هيمنة الوحي قرآنا وسنّة، وليؤسس في الوجود سبيل العلم والمعرفة، مثل قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾(يس: ٣٨)، روى أبو ذرّ رضي الله عنه قال: دخلت المسجد حين غابت الشمس والنبي -صلى الله عليه وسلم- جالس، فقال النبي: يا أبا ذرّ أتدري! أين تذهب هذه؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها: اطلعي من حيث جئت فتطلع من مغربها . . . الحديث"[3]. هذا الإيضاح النبوي ينتظم في سلك المنهج الشمولي في تفسير القرآن، إذ التساؤل عن شروق الشمس وغروبها في لحظة تأمل في آثار صنع الله تعالى واقع لا محالة، والعلم في ذلك العصر لا يجلّي مفهوم الآية، لذلك لا بدّ من معنى تقريبي مجمّل يفسّر ظاهرة غيابها للأذهان. والعقول في ذلك الوقت يشفي غليلها التقريب، ويوقعها في الحرج المعنى المفصّل على صورته التي نعرفها عليه اليوم. غير أن المعنيين منسجمان متوافقان. والبيان النبوي هنا يظهر أن الشمس مخلوقة مأمور منقادة لأمر ربّها، لا تخرج عن النظام الذي أجراها عليه، وهو بيان يبتعد بالإنسان عن كل

---

(١) مسلم، كتاب البر والصلة ٤/ ٢٢٣، ح٢٦٢١.

(٢) مسلم، كتاب التوبة ٤/ ٢١١٣ ، ح٣١.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان ١/ ١٣٨ -١٣٩، ح٢٥٠، وانظر : الألباني، صحيح سنن الترمذي ، كتاب التفسير ٣/ ٩٧٠، ح٢٥٧٩.

أسطورة وخرافة تتعلق بالشمس، وعليه، فالقول: إن المعنى الوارد في الحديث مخالف لما عليه العلم اليوم ؛ لأن غياب الشمس ليس على حقيقته ، فهي لا تغيب ، وحركتها وحركة الأرض وغيرها من الكواكب قد كشف عنها العلم الحديث، وأعطى تفسيرات حقيقية لهذا الوضع الكوني . . . قول لا يصح ؛ لأن للسجود معاني كثيرة، وقد ينسب لأشياء كثيرة كسجود النجم والشجر في قوله تعالى: ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾(الرحمن: ٦). وهو سجود يعبّر عن معنى الإنقياد الكامل لله الخالق العظيم ، فالزجّ بهذا الحديث في أتون العلم، ليفهم بعد ذلك على أنه مصادم للعلم منهج غير محمود. والمفسّر مطالب بأن يبيّن معاني القرآن بهذا الشمول.

وشمل الإرشاد النبوي بيان كيفية التعامل مع الطبيعة والبيئة وما سخرّه الله تعالى للإنسان من مظاهرها في ضوء الهداية القرآنية ؛ لتكون للإنسان -دوما- خير مرتفق. ولقد رسم هذا الإرشاد معالم حضارية وصلت الى حدّ العناية بأبسط مخلوقات الله في هذا الكون، فعن ابن مسعود قال: كنا مع رسول الله في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة ، فجعلت تعرش، فلما جاء رسول الله قال: من فجع هذه بولدها ؟ ردّوا ولدها إليها(١) .

وبهذا نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يؤسس فكرا ووعيا حضاريا في التعامل مع هذا الوجود ، ليظل خير مرتفق للإنسان ، هذه حكمة القرآن ، في حين أن الفلسفة الغربية افترضت، بل قامت على مبدأ الصراع بين الإنسان والطبيعة، وسبّبت للإنسانية مشكلات خطيرة من أهمّها: مشكلة التلوث البيئي.

ويتوضّح هذا الأمر أيضا في قوله عليه الصلاة والسلام لفتى من الأنصار: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إيّاها ، فإنّه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه(٢) .

---

(١) صحيح ، الحاكم، المستدرك ٤/٢٣٩، ووافقه الذهبي ، الألباني ، صحيح سنن زبي داود ٢/٥٠٨ -٥٠٩، ح٢٣٢٩

(٢) صحيح، الحاكم ، المستدرك ٢/٩٩-١٠٠، ووافقه الذهبي.

وعلى الصعيد الإنساني توجّه الإرشاد النبوي في ضوء الهداية القرآنية الى تعميق معاني عملية تعدّ في حقيقتها تغييرا للصفات الذميمة التي تكتسبها النفس الإنسانية، فهذه الشريعة شريعة رحمة، وهداية شاملة، تبدأ بالالتزام بكبرى اليقينيات مثل وحدانية الله ، وتنتهي بمثل مشاعر الوالد تجاه ولده ، أو حتى برعاية بهيمة والإحسان إليها. لقد قبّل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الحسن بن عليّ وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قال: من لا يرحم لا يرحم (١). فمثل هذه المعاني الهادية المستمدّة من وحي القرآن تفرض على المفسّر تحقيق هذا الغرض في تفسير القرآن، وإزالة كل الحجب التي تحول بين هداية القرآن وقلوب الناس، أو تعكر عليهم صفو الالتزام به، وأن تكون مادّة التفسير نفسه متجهة الى هذا الهدف.

كذلك يتجلى الهدي النبوي في تفسير القرآن عمليا في الآيات الداعية الى حسن الخلق، ومعاملة الناس بالمعروف والإحسان . . . للوصول بالمتفهّم لكتاب الله الى حدّ القناعة والالتزام، يقول عليه الصلاة والسلام: ما من رجل له مال، لا يؤدي حق ماله إلا جعل له طوقا في عنقه شجاع أقرع، وهو يفرّ منه، وهو يتبعه: " ثم قرأ مصداقه في كتاب الله عزّ وجل: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شرّ لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾(٢).

---

(١) البخاري، كتاب الأدب ٤٢٦/١٠ ، ح٥٩٩٧.

(٢) صحيح، انظر: الألباني، صحيح سنن ابن ماجه ، ٢٩٧/١، ح١٤٤٣.

الخاتمة

نخلص الى القول ان هذه الدراسة لم تستقص كل الأحاديث في الموضوع، فذلك عمل جدير برسالة علمية، وإنما اكتفت بإثارة قضية التعامل مع القرآن وتفسيره، وإبراز أسسه وضوابطه من خلال ترشيد الرسول صلى الله عليه وسلم مسيرة الصحابة في فهم القرآن والالتزام بأحكامه وتشريعاته، أو بهديه بعبارة جامعة، من حيث الاعتقاد والعمل والسلوك.

لقد تبيّن - بفعل هذا التوجيه والترشيد النبوي لهذه المسيرة المباركة - منهج واضح المعالم والأسس والضوابط في التعامل مع القرآن والعمل به، هذا المنهج يكشف - من ناحية أخرى- عن مبلغ عظيم من العناية والرعاية في تلقّي القرآن الكريم ، وحسن قبوله، والتفاعل معه على صورة هي الغاية في الدّقة وحسن الاستجابة. وهو منهج حريّ بأن يكون حاضرا في ذهن كل مفسر، وهو يتعامل مع كتاب الله تعالى.

ويبدو أن الأحاديث الواردة في عملية الترشيد قليلة، كذلك الأحاديث التي تكشف عن حوار أو نقاش بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في معنى آية، أو العمل بآية - بالنظر الى مجموع ما روي في التفسير من أحاديث، ويرجع السبب في ذلك - والله أعلم - الى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بيّن كل ما يحتاج الى البيان، وكان شأن الصحابة هو التلقّي والقبول بفهم واع بصير لما يصدر عنه من بيان لمعاني القرآن والتزام حدوده ، وتنزيل نصوصه على أرض الواقع.

إن البيان النبوي لم يقف عند حدود شرح النصّ القرآني، وبيانْ ما فيه من أحكام ومعان، بل جعل النصّ القرآني مهيمنا على السلوك بفعل التأثير والمراقبة الصحيحة النبيهة الواعية لمسيرتهم المباركة في فهم القرآن. وبفعل الإقناع القوي، والحجة البصيرة، والإيضاح الذي لا يترك للمتفهّم خيارا إلا الاستجابة والاتّباع ؛ فينكر على مسيء الصلاة صلاته، ويحثّ من يقتصر على الزكاة الى الزيادة في الصدقة، وينكر على المقصّر في الزكاة تقصيره، وينكر على من أسرف في العبادات إسرافه، وينكر على مسيء المعاملات إساءته،

ويرشد ويسدّد ، ويصوّب ويقوّم. وهكذا، مضى عهد النبوة ومجموع الناس على فهم واع، وعمل مستقيم بكتاب الله تعالى. وهو منهج جدير بأن يكون حاضرا في ذهن كل مفسّر وهو مقبل على كتاب الله يتفهمه ويفسّره.

هذا المنهج الذي تمخّض عن أسس مهمّة تمثلت في الوقوف عند حدود النصّ وعدم تجاوزه باجتهادات وتأويلات. وتجاوز النظر السطحي. والنظر في القرآن من حيث تفسير بعضه في ضوء بعض. والنظر في السياق القرآني نفسه. وفهم القرآن في ضوء السنن الإلهية. والحذر من تنزيل النص على الواقع بما يخالف هدي القرآن أوالتكلف في التأويل. وتوجيه الخطاب التفسيري عالميا لينسجم مع عالمية خطاب القرآن - هذا المنهج كان مبنيا على قاعدة أساسية كبرى هي : أن القرآن كتاب هداية ومنهج حياة.

كذلك كشف الترشيد النبوي لهذه المسيرة المباركة عن ضوابط مهمّة في التعامل مع القرآن من حيث الوسطية والإعتدال في فهمه، وفي العمل به. ومعرفة كونه لا يدعو الى إفراط أو رهبانية. وأنه كتاب هدى ويسر ورحمة. وتوجّهه الى تصحيح المفاهيم. وعدم الرجم بالغيب في تأويل آياته. وشمول النظرة التفسيرية لتنسجم مع شمولية رسالته العالمية.

هذا جهد المقل، ولا أدّعي فيما قدّمت كمالا ، والحمد لله أولا وآخرا.

دليل المصادر والمراجع

١ - ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الطناحي (بلا تاريخ) ، المكتبة الإسلامية.

٢ - الأصبحي، مالك بن أنس، الموطأ، تعليق محمد عبد الباقي (بلا تاريخ) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣ - الألباني ، محمد ناصر الدين، تحقيق مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي (١٩٧٩)، المكتب الإسلامي، بيروت.

٤ - الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن أبي داوُد (١٩٨٩)، مكتب التربية العربي، الرياض.

٥ - الألباني ، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي (١٩٨٨) ، مكتب التربية العربي، الرياض.

٦ - الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن ابن ماجة (١٩٨٨) ، نشر مكتب التربية العربي، الرياض.

٧ - الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن النسائي (١٩٨٨)، نشر مكتب التربية العربي، الرياض.

٨ - البخاري ، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح ، متن فتح الباري ، تصحيح ابن باز (بلا تاريخ)، نشر دارالإفتاء السعودية ، الرياض.

٩ - البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا (١٩٩٤) ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

١٠- ابن حجر، أحمد بن علي بن العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (بلا تاريخ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

١١- ابن حجر، أحمد بن علي بن العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تصحيح ابن باز (بلا تاريخ) ، نشر دار الإفتاء السعودية الرياض.

١٢- ابن حنبل، أحمد بن محمد، المسند، تحقيق وتخريج أحمد شاكر وتكملة حمزة الزين (١٩٩٥) ، دار الحديث، القاهرة.

-لمسند، طبعة ثانية ، دار الفكر ، بيروت.

- المسند، طبعة ثالثة، حقّق تحت إشراف د. سمير المجذوب (١٩٩٣)، المكتب الإسلامي ، بيروت.

١٣- السيوطي ، جلال الدين ، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (بلا تاريخ)، دار الفكر ، بيروت.

١٤- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، الإستيعاب في أسماء الأصحاب ، مطبوع على هامش الإصابة لابن حجر.

١٥- ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله ، عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي (١٩٩٥) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

١٦- العظيم آبادي، أبو الطيّب محمد شمس الدين الحقّ ، عون المعبود شرح سنن أبي داوُد (١٩٧٩) ، دار الفكر ، بيروت.

١٧- العفيفي، محمد ، مقدمة في تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم (١٣٩٩) ، دار السلاسل، بيروت.

١٨- الكاندهلوي، محمد زكريا، أوجز المسالك الى موطأ مالك (١٩٨٩) ، دار الفكر ، بيروت.

١٩- النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، شرح صحيح مسلم (بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

٢٠- النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ، وبذيل التلخيص للإمام الذهبي (بلا تاريخ) ، دار الكتاب العربي ، بيروت.

٢١- النيسابوري، مسلم بن الحجاج بن مسلم، الجامع الصحيح، تحقيق محمد عبد الباقي (بلا تاريخ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.